
سلسلة تاريخ الصحـــابة
صابر عبده ابراهيم
بلال
منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

صابر عبده ابراهيم



منشورات دار الخير للطباعة والنشر
بغداد

من الظلمات الى النور

— ١ —

أقبل المساء ، ولمعت النجوم في السماء ، وراحت حرارة النهار تمر رويداً رويداً وتحل محلها رطوبـــة الليل ، وتنفس الناس الصعداء ، فلقـد كان يومهم حاراً شديد الحر كأنما أرادت جهنم أن تنفح الناس من نفحاتها ، وأن تظهر لهم بعض مكنوناتها لعلهم يتذكرونها ؛ فيخشون عذابها ، ويخافون لهبها ، فيفكرون في حياتهـــم الضالة ويتفكرون في أصنامهم التي يعبدونها ويتخذونها آلهة من دون الله ـ وإن كانوا لم يروا لها

معجزة أو يجدوا لها قدرة ، أو يحسوا منها عملا وانتاجا .

وقد انبسطت أسارير الناس ، وراح الرجل يقول لصاحبه ماأجمل الليل وماأطيب هواءه ،لقد كنا قريبين اليوم من الموت لولا أن تداركنا هذا الليل بهوائه العليل ونسيمه البليل .

وفي بيت من بيوت بني جُمح ، كان رجل من سراة القوم وأشرافهم يجلس في بيته بين أهله وأزواجه ، وكان رجــلا ضخم الجثة ، عظيم الجسم تبدو على قسمات وجهــه أمارات الغلظة والقسوة ، ممزوجة بعلامات الجبن والخور .

ونادى الرجل :

ـ بلال ... بلال ..

فأسرع اليه عبد أسود اللون ، نحيف ضعيف ، طويل نحيل ضامر الوجه ، خفيف العارضين ، كثيف الشعر :

ـ نعم يامولاي . .

ـ هات لنا طعام للعشاء . .

ـ سريعاً يامولاي . وانفتل العبد مسرعاً من أمام سيده ..

وأكل القوم وشربوا ، ثم جلسوا يتسامرون ماشــاء لهم السمر ، ويتحدثون ماطاوعهم الحديث . ومرت الساعة إثر الساعة حتى إذا لم يبق على منتصف الليل إلا قليلا هجع القوم يريحون أجسامهم مما ألم بها من تعب ونصب وانتظر بلال حتى نام القوم ، ثم داعب الكرى جفونه فاستسلم له طائعاً مختاراً وأمسى القوم في سبات عميق .

وراحت ساعات الليل تسرع الخطى في سيرها ، فانتصف الليل ، ثم مرت ساعة وتقلب العبد في فراشــه ، وكان نومه خفيفاً ، ففتح عينيه ، ولكنه لم ير شيئاً ، فاغلقهما مرة أخرى مستسلماً لنومه اللذيذ .

وماهي إلا دقائق معدودة ، حتى فتح العبد عينيه مرة ثانية فقد خيل اليه أنه سمع صوتاً يناديه كأنه حلم ، وقام من فراشه نصف قومة ، وانصت جيداً .

ومالبث أن تحقق مما شك فيه،فقد سمع صوتاً يناديه بهدوء كأنه ينبعث من احدى القبور :

ـ بلال .. بلال ..

وقفز بلال من فراشه ، وقد احتواه شعور عجيب ، واسرع الخطى إلى الباب ليفتحه وهو موزع الفكر مشتت الذهن .

وفتح الباب في هدوء ، ثم اطل براسه ، فلمح شبحاً منتصباً في وسط الظلام ، شبحاً نحيف الجسم ، خفيف العارضين ، دقيق الساقين خفيف اللحم في سائر جسمه ، ذا وجه ابيض معروق ناتيء الجبهة ، غائر العينين .

وصاح بلال :

ـ من هناك ؟

ـ ابو بكر .

ـ ابو بكر . ! ، وما الذي جاء بلك الساعة ؟

ـ امر هام ، احببت ان اسره إليك الآن .

ـ او ما كان من المستحسن ان ترجئه إلى الصباح .

ـ لايابلال .. فما جئتك الآن إلا لأسره اليك بعيداً عن اعين الناس .

ـ عجيب امرك ياابا بكر . ! ـ خيراً إنشاءالله ـ قل ماتريد .

ـ اسمع يابلال .. اتذكر يوم خرجت معنا في تجارة قريش إلى الشام ؟

ـ نعم ، اذكر ذلك ..

ـ وهل تذكر يوم ذهبت معي إلى راهب هناك ، فقصصت عليه رؤيا رأيتها فحدثنا يومها ان نبياً سيظهر في بلاد العرب ؟

ـ نعم .. نعم .. اذكر ذلك جيداً .

ـ لقد تحققت نبوءة الراهب يابلال ، وظهر نبي هــذه الأمة .. !!

ـ نبي هذه الأمة .. !؟

ـ اجل يابلال .

ـ ومن هو ؟

ـ محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب .

ـ ولكن ياأبا بكر .. كيف عرفت انه نبي ؟

ـ سمعت همساً يسري في مكة ان محمداً قام يدعو الناس سراً إلى توحيد إله واحد ، وكنت اعلم عنه الصدق والأمانة ، فذهبت اليه ، وقلت له ، ياأبا القاسم ، ما الذي بلغني عنك . ؟

فقال : ومابلغك عني ياأبا بكر ؟ قلت له : بلغني انك تدعو لتوحيد الله وزعمت انك رسول الله ، فقال : يا أبا بكر ، إن ربي عز وجل جعلني بشيراً ونذيراً ، وحملني دعوة ابراهيم وأرسلني إلى الناس جميعاً ، فقلت له : والله ماجربت عليك كذباً ، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك وصلتك لرحمك وحسن فعالك فأنا أبايعك ، فمد رسول الله يده فبايعته .

ـ إن هذا اعجب نبأ سمعته ياابا بكر ، ولكن ما هذا الذي يدعو محمد اليه ؟

ـ إنه الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما ، لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، العالم بما انطوت عليـــه الضمائر ، والمطلع على كل نفس بما كسبت ، والمجازي لها بما عملت ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ـ وإلام يدعو محمد . ؟

ـ إنه يدعو إلى عبادة الله وحده ، وان دعوته يابلال دعوة الحق والعدل والمساواة ، فالناس فيها سواسية كأسنان المشط لافضل لحر على عبد ، ولا لعبد على حر، إلا بالايمان والتقوى.. ووالله يابلال ، ماأردت لك إلا الخير ، فهيا آمن ولاتتردد ، فإن دعوة محمد هي السعادة التي لاسعادة بعدها ، والخير الذي لاخير بعده قل يابلال اشهد ألا إله إلا الله، وان محمداً رسول الله.

فسكت بلال قليلا ، واطرق براسه إلى الأرض ، ثم رفع رأسه إلى أبي بكر وقال بصوت هاديء خفيض :

أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ففرح أبوبكر لاسلام بلال ، وشاع الرضى في وجهه ، وقال :

ـ سنذهب غداً إلى محمد ، وسأنتظرك في مثل هذا الوقت في بيتي فلا تتخلف عن الحضور .

ـ لن أتخلف ياأبا بكر ..

وصافح ابو بكر بلالا ، وشد على يمينه ، ثم قفل راجعاً الى بيته .

آمن بلال ونطق بالشهادتين . وهو العبد الضعيف الذي لاحول له ولاقوة ، ولاجاه ولاساطان ، وما كان يعلم بلال ان وراء اسلامه هذا عذاباً اليما ، واضطهاداً شديداً ، سيصبه عليه أصحاب الجاه والساطان في مكة ، الذين غرتهم الحياة الدنيـــا وفرحوا بها واطمأنوا اليهـــا ، وخشوا أن تنزل دعوة محمد من أقدارهم بمساواتهم بالموالي والعبيد وماعلم هؤلاء ، ان الدائرة ستدور عليهم ، وأن ذلـكم العبـــد الضعيف ، سيصبح رجلا كريماً ، يحفظ له التاريخ صفحات مجد وفخار تتعدى القرون والأجيال ، وتبقى خالدة على هام الزمان حتى يرث الله الارض ومن عايها .

وفي إسلام بلال رأى لبعض المستشرقين ، يقول فيه : إن بلالا ومن كان على شاكلته من الخدم والعبيد ، لم يؤمنوا بدعوة محمد إلا لأنهم رأوا فيهـا مصاحة لهم ، إذ انهـا ستسوي بينهم وبين علية القوم وسادة الناس ولنفرض ان الأمر كذلك ، وان

الموالي والعبيد لم يستجيبوا لدعـوة الرسول الكريم إلا لأنهم رأوا فيها مساواة لهم برؤساء القوم وأعيان الناس ، ترى ، فما هي مصلحة علية القوم وسادة الناس في النزول بأقدارهم الى مساواتهم بالعبيد . ؟

لا .. لا .. ما آمن أصحاب الرسول أحراراً كانوا أم عبيداً إلا لأنهم شعروا بالحق يملأ قلوبهم فيدفعهم الى الايمان دفعاً.

وما اروع مايقوله الأستاذ عباس محمود العقاد في هـذا المعنى .

« فلا العبيد آمنوا لأن الاسلام يسوي بينهم وبين الأحرار ولا الأحرار آمنوا لأن الاسـلام يسوي بينهم وبين العبيد ، لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس ، ومازال الايمان والمصلحة شيئين مختلفين ، ومعدنين متباينين ، فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصة قليلة من حياته ، اما الايمان فهو ابداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة .

أَحَدٌ .. أَحَدٌ

واخذ بلال بعد إسلامه يتردد بين الفينة والفينة الى محمد صلى الله عليه وسلم تحت جنح الظلام ، وذات مساء ، بعد أن رجع بلال من عند الرسول ، وكان الوقت قبيل الفجر عنّ لبلال ان يطوف بالكعبة ليشاهد الآلهة العجيبة وأثرها في نفسه على ضوء الدين الجديد الذي آمن به ، ودخل بلال اول مادخل على هُبل أضخم الآلهة واكبرها سناً ومقاما ، وصاحب الحول والطول والسند العظيم بين الآلهة جميعاً ، وكان هبل من عقيق احمر على شكل انسان وقد كسرت يده اليمنى فركب القوم مكانها يداً من ذهب . ولايعرف بالضبط كيف كسرت يده ومتى واين كسرت وانا ارجح ان بعض الناس كسرها ذات ليلة وحملها الى بيته ليستمد منها البركات والنفحات .

ونظر بلال الى هبل فوجده كالعهد به لم يتحرك من مكانه قيد انمله وأدام النظر اليه قليلا ثم انفجر ضاحكاً وراح يحدث نفسه . أحقاً كان يعبد هـــذا الاله من قبل وأي شيء رآه فيه حتى يعبده ، حقاً لقد كان اعمى .

وخيل لبلال ان يتحدى شيخ الآلهة ، فرفع يده ولطمه بها على وجهه لطمة قاسية ثم انتظر ايرى ماذا سيفعل .

ولكن الاله لم يتحرك ، فحسب بلال ان الاله الكبير قد فوض امر الانتقام منه الى اولاده وانجاله المحيطين به فتلفت بلال حوله ، ولكنه رأى الآلهة جميعاً يغطون في سبات عميق فما كان منه أخيراً إلا ان بصق على هبل . ثم استعد للانصراف

وبينما كان بلال يفعل ذلك ، كان رجل خلفه يرقبه ويشاهد حركاته فرآه حين سب هبل وحين لطمـــه وحين بصق على وجهه وكتم الرجل غيظه ثم انسل راجعاً الى مأواه .

* * *

وأصبح الصباح ، وجلس أنداذ قريش وأشرافها حوله

الكعبة يتحدثون كعادتهم كل يوم ، ودارت دفة الحديث حول محمد ودعوته ، وأخذ القوم يجيلون قداح الرأي في ذلكم الخطر الداهم الذي يهدد بزوال سيادتهم وملكهم ، وبينما هم في حديثهم شاهدوا رجلا يسرع الخطى اليهم . ثم يجلس الى امية بن خلف ويسر في اذنه حديثاً ، ورأى القوم وجه أمية يصفر حيناً ويحمر حيناً آخر ، وشاهدوا امارات الغضب تبدو على قسمات وجهه وهو يقول للرجل .. أحقاً ماتقول ؟

ـ نعم ، لقد رأيته بعيني هاتين .

وماذا فعل ؟

ـ لقد أتى شيئاً نكرى . . لايستطيع لساني أن يتفوه به .

ـ قل ولاتخش شيئاً ويل للعبد الفاجر .

ـ لقد رأيته يسب هبل العظيم ـ ثم ثم يبصق على وجهه

ـ يا للاله .. لأنتقمن من العبد الفاجر شر انتقام . أبلغت به الجرأة الى هذا الحد ؟

ـ ولقد رأيته مراراً يخلف الى محمد في وسط الليل ،فيجلس

اليه ، حتى اذا اوشك الفجر ان يطلع عاد الى البيت .

ـ اذهب الآن . وراقبه مراقبة دقيقة .

وينظر شيوخ القوم الى أمية مستفسرين ...

ـ عماذا كنت تتحدث ..

ـ عن عبدي بلال .

ـ ماله . ؟

ـ سرى إلي همس منذ ايام أنه صبأ ، وانـه يذهب الى محمد في وسط الليل فأرسلت وراءه من يراقبه ـ ولقد جاءني اليوم ان العبد الفاجر سب ألهتنا هبل . وبصق في وجهه .

فصاح القوم مستنكرين . ويل للعبد .

أبو جهل ـ أخشى إن لم نتدارك دعوة محمد وهي في مهدها أن يصيبنا منها شر . إسمــع يا أمية ـ اذهب الى بيتك الآن ـ وأدّب عبدك الفاجر والق عليه درساً مريراً ليكون عبرة لهؤلاء الأذناب والموالي الذين تحدثهم نفوسهم الخبيثة بالدخول في دعوة محمد .

ـ نعم . لألقين عليه درساً يكون حديث مكة كلها .وقام أمية من مجلسه ، والشرر يتطاير من عينيـه ذات اليمين وذات الشمال .

* * *

دخل أمية بيتـــه ـ ونادى بلالا ـ فلما أقبل اليه قال : ـ أظننت اني لاأعلم بحركاتك ـ وأين تذهب كل ليلة .. لا إني اعلم كل شيء .. دعك يابلال من هذا الدين الذي أتبعت وعد الى ديننا فهو خير لك .

ـ لا والله ، لاأدع ديني ابداً ..

ـ أطعني يابلال ، وإلا دققت عنقك ومزقتك إرباً إربا .

لست اخشى بعد الله احدا ، ولن أخاف من دونه متحداً.

ـ على رسلك يابـلال . لست أحب ان اكثر الجدل معك وسأرغمك هنا إرغاماً على العودة لدينك القديم .

ـ افعل ماتشاء .

ونادى أمية خدمه ومواليه . فلما أقبلوا اليه أمرهم أن يلبسوا

بلال خلال خرقه قديمة ،ثم جاء بحبل فوضعه في عنقه ، ونادى أطفال الحي وغلمانه ، وأمرهم ان يسحبوه على وجهه ويسيروا به في الطرقات . وخرج الصبية يجرون بلال ، وكان كلما رآه قوم قالوا : ماهذا . ؟

فيقال لهم رجل كفر باللات وترك دين آبائه ، واتبع دين محمد. فيصب القوم عليه اللعنات ويستمطرون عليه غضب الآلهة وماتملك من النقمات وكان بلال كلما رأى قوما يقتربون منه صاح بأعلى صوته :

ـ أحد .. أحد ..

وظل الصبية يتنقلون به من مكان إلى مكان حتى تصرم النهار وقد بلغ منه الجهد والتعب مبلغاً كبيراً .

* * *

ودخل أمية بن خلف على بلال وهو يمني نفسه بخير الأماني والأحلام ظاناً أن العذاب قد أثر فيه . وما درى بن خلف ان الايمان القوي حين يحتل قلب المؤمن تعجز الدنيا كلها ، بقوتها

وجبروتها عن أن تنال منه او تؤثر فيه اقل تأثير .. وصاح امية:

ـ هيه يابلال ، لعلك عدت إلى رشدك وعقلك ، فتترك دين محمد .

ـ احد .. احد ..

ـ دعك يابلال من هذا ، فلن ينجيك محمد من عذابي .

ـ احد .. احد ..

ـ على رسلك . سترى ماهو اشد وأنكى .

ـ احد .. احد ..

وظل أمية بعد ذلك يتفنن كل يوم في تعذيب بلال ، وبلال صابر على العذاب ،مصمم على ان يسخر من أولئك الســادة الأشراف ليريهم كيف أنهم بأموالهم وسلطانهم لم يستطيعوا ان يحولوا عبداً ضعيفاً عن عقيدة اعتقدها .

وعيل صبر أمية واحتار ماذا يصنع بهذا العبد الشديد العنيد فذهب إلى صديقه أبي جهل يستشيره في قتله فقال له :

ـ لاتقتله فإن في قتله إظهار لضعفنا ، ولكن إن يومنا هذا

شديد الحر فاذهب إلى بلال فإلبسه درعا من حديد ، ثم قيده في بطحاء مكة تحت نار الشمس المحرقة وسترى أنه سـيعود اليك راجياً مستعطفاً .

ـ فكرة صائبة ، هكذا الظن بك يا أبا جهل . وسأضع على صدره صخرة كبيرة .

وجاء أمية إلى بلال . فألبسه الدرع ثم قيده تحت وهج الشمس . ووضع على صدره صخرة كبيرة . ثم نظراليه وقال:

ـ هيه يابلال . كيف حالك الآن ؟

احد .. احد ..

ـ ردد يابلال احد احد . وأرنا كيف تنجيك احد احد . وستظل هكذا حتى تموت او تعود إلى ديننا .

احد .. احد .. ان يقتلوني . يقتلوني ، فلم اكن لأشـرك بالرحمن من خشية القتل .

وضرب القوم كفاً بكف ، متعجبين من هذا العبد الذي يتحمل كل ذلك العذاب في سبيل دعوة آمن بها .

وتشاء الأقدار ان يمر ابو بكر بن ابي قحافة الصديق على القوم وهو في طريقه الى البيت ويشاهد بلالا وهو ملقى على الأرض والصخرة على صدره فيتأثر لمرآه ويلتفت الى امية فيقول حتام تعذب هذا العبد ، ألا تتقي الله فيه .

- كفى ياأبا بكر . انت السبب في عذابه . وأنت افسدته .

- لم افسده . ولكني هديته إلى الحق . انا مستعد لشرائه .

- أتشتريه . ! كم تدفع فيه . ؟

- ماتطلبون .

- خمس أواق من الذهب .

ويدفع ابو بكر الثمن . فيقول امية له :

- لو ابيت الا اوقية لبعناك .

- لو ابيتم الا مائة أوقية لدفعتها .

ورفع ابو بكر الصخرة من على صدر بلال ، ثم قام معه وانطلقا ...

وفي الطريق قال بلال لأبي بكر :

ـ ان كنت انما اشتريتني لنفسك فأمسكني . وان كنت انما اشتريتني لله فدعني وعمل الله .

ـ انت حر يابلال

وسار الرجلان حتى وصلا الى النبي ، فقص أبو بكر عليه القصص فقال له :

ـ الشركة يا أبا بكر

ـقد اطلقت سراحه يارسول الله .

المؤذن الأول

صحب بلال رسول الله بعد ذلك ، يتفقه في الاسلام ويزداد علما بأسرار دعوته ، وظل معه ردحاً من الزمن حتى أمر رسول الله اصحابه ان يهاجروا الى المدينة - فهاجر بلال ذات ليلة مع سعد بن ابي وقاص وعمار بن ياسر وسار ثلاثتهم بالليل حتى وصلوا المدينة فوجدوا بها اخواناً لهم من خيرة الناس وافضلهم يحبون من هاجر اليهم ولايجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا بل ويؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - وعاش بلال في المدينة على أحر من الجمر - فقد كان مشتاقاً الى الرسول الأمين والتطلع كل يوم - كما كان في مكة - الى وجهه المشرق المنير - وكان بلال يخرج كل يوم الى ظاهر المدينة ينظر اليها علّه يحظى برؤية الرسول بعد أن سمع انه هاجر مع ابي بكر الصديق - وظل بلال ينتظر الرسول كل يوم حتى وصل الرسول الى المدينة ففرح بلال يومها فرحاً كبيراً .

ومرض بلال في المدينة واصابته الحمى . وكان يرفع عقيرته وهو مريض يترنم بأبيات من الشعر كلها شوق الى مكة وحنين اليهـــا .

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بواد وحولي أذخر وجليل
وهل أردن يوماً ميـــاه مجنة   وهل يبدون لي شامة وطفيل

وهي مواضع ومنابت في مكة كان بلال يعرفها ـ وكان كثيراً مايشاهدها في غدوه ورواحه ـ ولئن دل هذا الحنين على شيء ـ فانما يدل على الوفاء لوطنـــه الذي عاش فيه ردحاً من الزمن ولئن كان قد ذاق كثيراً فيه من العنت والمساءة إلا ان الله قد منّ عليه فيه بالاسلام .

وكان من أهم الأعمـال التي قام بها رسول الله في المدينة بناء مسجد .. قباء .. وكان ذلك بعد تحويل القبلة الى الكعبة ـ وبعد ان فرغ رسول الله من بناء المسجد جاس مع صحابتـــه يستشيرهم في طريقة يجمع المسلمين بها الى الصـلاة ـ بعد أن شكى اليه جماعة من المسلمين عدم ادراكهم لصلاة الجماعة بالمسجد

لعدم معرفتهم مواقيت الصلاة وميعادها .

وقال صحابي ..

ننصب راية عند حضور الصـــلاة فاذا رآها الناس علم بعضهم بعضاً .. فلم يعجب الرأي رسول الله ـ فقال آخر .

ـ لو رفعنا ناراً رآها الناس جميعاً وقاموا للصلاة .

ـ ذلك للمجوس .

ـ ننادي في البوق .

ـ هو من أمر اليهود .

ـ نتخذ الناقوس .

ـ هو من أمر النصارى .

وأخذ النقاش يدور بين المسلمين ونبيهم ـ ثم انتهـى اخيراً بأن وافق الرسول على استعمال الناقوس وهو كاره لذلك .

* * *

وكان رجل من المسلمـين يسمى عبدالله بن زيد حاضراً المناقشة ـ ورأى رسول الله مهموماً متفكراً .فحز ذلك في نفسه ـ

وسأل الله تعالى أن يهديه الى حل لمشكلة الدعوة الى الصلاة ـ
وذهب عبدالله بن زيد الأنصاري الى بيته فقالت له امرأته ـ
ألا نعشيك ـ قال لاأذوق طعاماً .. فاني رأيت نبي الله قد أهمه
أمر الصلاة .

وقام عبدالله فتوضأ ـ وصلى ركعتين ـ ثم نام على طهارة
ووضوء ..

ورأى عبدالله فيما يرى النائم رجلا عليه ثياب خضر وفي
يده ناقوس فقال له ـ أتبيع هذا الناقوس ؟

ـ ماذا تريد به .. ؟

أريدان أبتاعه لأضرب به للصلاة لجماعة المسلمين : ـدعك
من هذا ـ أنا احدثك بخير لكم من ذلك .

وماهو .. ؟

ـ تقول ـ الله اكبر ـ أشهد الا اله الا الله . اشهد ان محمداً
رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح ـ الله اكبر ـ
الله اكبر ـ لا إله الا الله .

ونادى الرجل بذلك النداء وهو على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة وقام عبدالله من نومه فرحاً مسروراً واسرع الى رسول الله فقص عليه الخبر ـ فقال له الرسول ـ قم مع بـلال ـ فألق عليه ماقيل لك وليؤذن بذلك . فانه اندى صوتاً منك .

وجاء عمر فقال . لقد رأيت يارسول الله مثل الذي رأى عبدالله بن زيد . فقال رسول الله .فلله الحمد فذلك أثبت(١) .

* * *

وأصبح بلال بعد ذلك يصعد الى اعلى المسجد يدعو الناس الى الصلاة ويناديهم الى الفلاح ـ وكان بلال رجلا ندي الصوت عذب الانغام مشهوراً عند اهل مكة بصوته الحنون الصداح ـ ولكم غنى لأمية حين كان عبـداً عنده ـ ولكم اطربه بشتى الأغاني والأشعار .

وكان أذان بلال ينساب بين ارجـاء المدينة عذباً ندياً ،

---

(١) طبقات بن سعد ـ الجزء الثاني ـ ص١١ـ١٢

فيسمعه المسلمون فيهبوا من نومهم مسرعين الى المسجد للصلاة مع رسول الله .

ولقد زاد بلال في أذان الفجر ـ الصـــلاة خير من النوم فأقرها رسول الله ـ كان بلال اول المؤذنين لرسول الله واول الداعين الى الصلاة وكان أمر رسول الله عبدالله بن زيد ان يلقى على بلال مارآه في نومه اكبر دليل على جمال صوت بلال وخلو لسانه من الفأفأة والمأمأة وماشاكلها من عيوب اللسان .

ولقد يحلو لي كثيراً ـ عندما أسمع صوت المؤذن يدعو الى الصلاة ـ ان اعود بنفسي الى الوراء ثلاثة عشر قرناً ـ لاتخيل بلال بن رباح. وهو واقف على مسجد قباء لأول مرة في تاريخ الحياة . يدعو الناس بصوته الندي الصداح الى الصلاة خلف رسول الله .

الخازن الأمين

واشتبك المسلمون مع قريش في غزوة بدر ، ودارت رحى المعركة الرهيبة بين الجيشين . وذكر المهاجرون وهم في وسط المعمعة كيف كانت قريش تؤذيهم وتصب عليهم ألوان المساءة والاضطهاد .. وذكر بلال أمية بن خلف وإذاءه له ففار الدم في عروقه ـ وود لو رأى أمية في يومه ـ إذاً لانتقم لنفسه منه ولرد له الكيل كيلين والصاع صاعين .

وبحث بلال عن أمية ـ ولكنه لم يره ـ فحز ذلك في نفسه وأقسم أن يقتله إن رآه .

واستغاث المسلمون ربهم فدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وأخذت رؤوس قريش تتناثر في الهواء ـ ودب الذعر في قلوب الذين كفروا ففر منهم من فر وانتظر منهم من لم يستطع الفرار للاسر ـ وتشاء الأقدار ان لايتمكن أمية بن

خلف من الفرار فوقف مع ابنه الأسر ـ ومر عليه عبدالرحمن بن عوف فناداه أمية ـ ياعبدالاله .

فالتفت إليه عبدالرحمن وقال .. نعم :

ـ هل لك في فأنا خير لك من هذة الادرع التي معك .

ـ نعم ـ هلم إذاً .

وأخذ عبدالرحمن بيديهما وانطلق قاصداً رسول الله .

ومر عبدالرحمن بن عوف وصاحباه على بلال فلمح بلال أمية ـ فانتفض واقفا وأسرع نحوه وهو يصيح .

رأس الكفر أمية بن خلف ـ لانجوت إن نجا ـ ورفع سيفه ليقتله فمنعه عبدالرحمن بن عوف وقال له أي بلال ـ دع أسيري .. فقال .

ـ لانجوت إن نجا .

ودار بلال حول أمية وابنه ـ فذب عنهما عبدالرحمن وامر بلالا أن يتركهما . ولكن بلال صاح بأعلى صوته ياأنصار الله رأس الكفر أمية بن خلف ـ لانجوت ان نجا .. فأسرع جماعة

من الانصار اليه والتفوا حول أمية ثم ضرب رجل منهم على بن أمية فقتله فصاح أمية .. ولدي ولدى فقال له عبدالرحمن انج بنفسك فوالله ما أغني عنك شيئاً ، فاسرع أمية هاربا واسرع بلال خلفه حتى لحق به ، ثم رفع سيفه عاليا وأهوى به على رأسه فشقها نصفين ، ووقع امية على الأرض فاقد الحياة .

ونظر بلال إلى جثة امية وقال .. ما اضعفك الآن يا أمية

واقبل عبدالرحمن بن عوف فعاتب بلال قائلا ..

فجعتني في اسيري يابلال ..

- عوضك الله ياعبدالرحمن خيراً .

وانقلب إلى اهله مسرورا .

* * *

وانصرف المسلمون بعدهزيمة قريش إلى الغنائم والاسلاب يجمعونها - [illegible]ت اول مرة يغنمون فيها - فاحتاروا كيف يقسمونها وكيف يوزعونها حتى جاء قضاء الله فيها (واعلموا انما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذوي القربى

واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقسم رسول الله الغنائم - واخرج الخمس لنفسه - ثم نادى بلال ودفعه اليه - فاصبح بلال خازن الرسول الإمين - فكان رسول الله إذا جاءه فقير او محتاج ارساله إلى بلال ليطعمه ويكسوه ودخل رسول الله ذات يوم على بلال - فوجد عنده صرة من تمر فقال له ماهذا يابلال -

- ادخرته لك ولأضيافك يارسول الله .

- اماتخش ان يكون له بخار في النار - انفق بلال - ولاتخش من ذي العرش إقلالا .

* * *

دخل رسول الله مكة ظافراً منتصراً - وطاف بالبيت سبعاً - ثم اتجه وبلال معه إلى باب الكعبة فوجده مغلقاً فسأل عن مفتاحه فقيل له - انه مع عثمان بن طلحة - فامر باحضاره في الحال .. وجاء عثمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له هات مفاتيحك ياعثمان . اليوم يوم بر ووفاء - ثم فتح رسول الله صلى

الله عليه وسلم باب الكعبة ودخل في جوفها ـ ولم يدخل معه إلا بلال واسامة بن زيد وعثمان بن طلحة ـ ثم صلى النبي ركعتين ـ وشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة صور الملائكة. وصورة ابراهيم عليه السلام وفي يده الأزلام يستقسم بها للناس فقال قاتلهم الله. جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ـ ماشأن ابراهيم والازلام. ثم تلى قول الله (ماكان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً. ولكن كان حنيفاً مسلماً وماكان من المشركين) وطعن الأصنام بعود كان في يده وقال (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً) وامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يصعد بلال إلى الكعبة ليؤذن للناس فاعتلي بلال ظهر الكعبة. ورآه المشركون فتعجبوا غاية العجب. وراحوا يتساءلون. مايفعل هذا العبد. ؟ وكيف جرأ على اعتلاء البيت الحرام الذي لم يصعد اليه أحد من قبل.

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن اسيد جلوساً بفناء الكعبة فرأوا بلالا على ظهر الكعبة فقال

عتاب . لقد اكرم الله اسيداً أن لايكون سمع هذا فيسمع منه مايغيظه ونظر رجل الحارث وقال .

ـ ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد .

ـ دعه إن يكن الله يكرهه فسيغيره ..

وصاح بلال من فوق الكعبة لأول مرة

الله أكبر الله أكبر . أشهد ألا إله إلا الله . أشهد ان محمداً رسول الله . حي على الصلاة . حي على الفلاح : الله أكبر الله أكبر . لاإله إلا الله وهكذا ارتفع اول أذان للمسلمين من فوق الكعبة فرجفت مكة رجفاً وكأنما كانت كل كلمة من الأذان سهما انطلق إلى صدور المشركين الواقفين حول الكعبة متعجبين مستغربين . دهشين مشدوهين ـ كأنما سحرهم جني عتي .. وانساب صوت بلال بين ربوع مكة عذباً ندياً .. صوت بلال . الرجل الذي كان عبداً حقيراً . فلما آمن جعل الله له وحده شرف الصعود إلى الكعبة التي لم يجرؤ احد من كبار قريش واشرافها على الصعود اليها . بل ان صوته لينساب قويا فيقرع

آذان عظماء قريش وسادتها فلا يستطيعون ان يضربوه بسوط او يصيبوه بأذى كما كانوا يفعلون من قبل بل أنهم اليوم اسرى في قبضة الرسول الأمين . الذي اخرجوه من مكة بعد ان أخرجوا قبله الذين آمنوا به فقراء الناس ومستضعفيهم .

ألا ان أشراف قريش وسادتها عبيد اليوم للرسول . لايدرون ماذا سيفعل بهم وان له الحرية فيهم . يفعل كيف يشاء بمن يشاء وهكذا يتم وعد الله وموعوده .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً) .

زواج بلال

جلس بلال في بيته .. واذا بأخيه ابي رُوَيحة الخثعمي يدخل عليه ـ فقام اليه بلال فعانقه ثم جلس معه ـ وقال بلال :

ـ لعلك بخير يا ابا رويحة ـ خيراً إن شاء الله ـ

ـ حمداً لله يا بلال ـ جئت اليك خصيصاً من اليمن لأمر هام

ـ خيراً ...

ـ ذهبت الى قوم هناك لأخطب امرأة منهم

ـ وماتم في خطبتها ... ؟

ـ زعمت لهم انني من العرب ـ فسألوني عن قبيلتي وحسبي ونسبي كاشفتهم بالحقيقة وقلت لهم : إني حبشي ولدت في مكة من قبيلة بني جمح واني اخ لبلال بن رباح صاحب رسول الله ـ فقالوا لي .. إن جاء بلال زوجناك فجئت اطلب منك الرحيل معي الى اليمن .

ـ سأستأذن رسول الله ثم أذهب معك .

وانطلق بلال إلى رسول الله ـ فأذن له في السفر ـ وخرج

الرجلان إلى اليمن فوصلاها ليلا ـ فباتا في المسجد ـ ثم توجها في الصباح الى دار العروس وجاس بلال مع سيد القوم . ثم قال له :

« أنا بلال بن رباح ـ وهذا أخي ـ وهو إمرؤ سوء في الخلق والدين فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه وإن شئتم أن تدعوا فدعوا »

وقد يعجب القاريء الكريم من كلمة بلال هذه ويقول ـ كيف يصف بلال أخاه بأنه امرؤ سوء في الخلق والدين ـ وهو الذي جاء به اخوه ليقرضه ، ويمدحه ، ولكنها ليس فيها ما يدعو إلى العجب ، بل انها كشفت عن ناحية من اهم النواحي في حياة بلال واخلاقه ، فقد كان بلال رجلا صادقاً صدوقا ـ لا يعرف لسانه الكذب ولا الرياء ـ وليس من شيمته الزيف والخداع .

لقد قال بلال لهم ما كان يعتقده في اخيه وكشف لهم عن نواحي النقص فيه فكان ذلك اعظم عند القوم من سوق آيات المدح والثناء ، وكانت النتيجة ان رحب القوم بزواج ابي رويحة .

وبعد ان انتهى بلال من زواج اخيه احس هو الآخر برغبته في الزواج واخذ يفكر ـ لم لا يتزوج ـ والزواج نصف الدين ..

واحتار بلال ـ ممن يتزوج ـ ومن اي القبائل يختار زوجه وهداه الله اخيراً إلى آل هند ، فذهب اليهم ثم قال لهم :

« انا بلال بن رباح ، صاحب رسول الله ، عبد من الحبشة كنت ضالا فهداني الله ، وكنت عبداً فأعتقني الله ، ان تنكحوني فالحمد لله ، وإن تمنعوني فالله اكبر .

فقالوا له : امهلنا حتى نسأل رسول الله .

وعاد بلال إلى المدينة . ومرت ايام ، ثم جاء آل هند إلى النبي الكريم وقالوا له : نحن من اليمن ، وقد جئنا لنسألك عن بلال ، إن بلالا يرغب في ان يتزوج هنداً اختنا ، وقد امهلناه حتي نأتيك ، وإنا نحب ان نسمع رأي رسول الله فيه ، فتبسم رسول الله وقال :

أين انتم من بلال ، اين انتم من رجل من اهل الجنة ، فسر آل هند من حب رسول الله لبلال وعلو مكانه عنده وزوجوه هنداً ، ومرت ايام على زواج بلال وهو سعيد غاية السعادة ان وفقه الله لاتمام دينه .

ورجع بلال إلى بيته يوما بعد صلاة العشاء ، وجلس إلى زوجه يعلمها من احاديث الرسول وآداب الاسلام ، وذكر بلال فيما ذكر حديثاً سمعه من الرسول الأمين ، ولكن زوجه شكت في الحديث ولم تصدق بلالا فيه فغضب بلال ، وثار الدم في عروقه ، كيف تتهمه إمرأته بالكذب ، وكيف تشك في اقواله التي ينقلها عن رسول الله .

ولم يطق بلال صبراً ، فخرج من البيت غضبـــاناً ثائراً ، وذهب إلى رسول الله فقص عليه الخبر ، فقام رسول الله واخذ بيد بلال وتوجه الى زوجه وقال لها :

- أَثَمَ بلال ؟

- لا

- فلعلك غضبى على بلال ؟

- لا - انه يحبني كثيراً .

- ماحدثك عني بلال فقد صدق ، بلال لايكذب فــلا تغضبي بلالا فلا يقبل منك عمل ما اغضبت بلالا ..

وعاد الصفاء مرة اخرى إلى البيت ، وعاش بلال مع زوجه

بعد ذلك قرير العين هادىء النفس مسروراً .

* * *

صحب بلال رسول الله حياته كلها ، فكان يحارب معه في اوقات الحرب ويجاهد معه ساعات الجهاد ، ويقضي ايام السلم في العبادة والصلاة . وظل هكـــذا حتى مات رسول الله والتحق بالرفيق الأعلى .

ودخل بلال على الرسول الأمين وهو مسجى على فراشه ، فسال الدمع من عينيـــه ، وأحس بالحزن العميق يتجاوب في صدره ، فصلى عليه ثم خرج إلى بيته حزيناً كئيباً .

أهكذا يموت رسول الله ، الذي حنى على بلال أكثر من حنو الأم على ولدها ، وعطف عليه عطف الأب على ابنه الوحيد .

كان بلال يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقـــد علم فيما بعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى أوصى أبا بكر أن يشتريه وطلب منه أن يقاسمه في دفع ثمنـــه ، فلله أنت يارسول الله .

وراح بلال يقول لنفسه

لقد كنت القمر المنير والسراج الوهاج الذي يضيء للناس ظلمات الحياة ترى كيف يستطيع الناس أن يعيشوا بعد أن ينطفيء نورك .. ولكن لا .. استغفر الله ...

أن رسول الله سيظل حياً باقياً مدي الدهر ، وإن سيرته العطرة وحياته التي تمتليء بالخير والحق هي مشعل الهداية الذي سينير للناس جميعاً متاثه الدنيا وظلمات الأرض ..

لا .. أن رسول الله لم يمت ، ولن يموت ، مادام القرآن الكريم باق على الدهر خالداً على الزمان يقرؤه المسلمون في صباحهم ومسائهم ومادامت السنة المطهرة والسيرة الشريفة تتلى على الناس في أيام الجمع وغير ايام الجمع .

ولم يستطع بلال أن ينام ليلتها من حزنه على فراق الرسول فظل طول الليل ساهراً وأخذت الساعات تمر واحدة بعد واحدة حتى أوشك الفجر على الطلوع ، فخرج بلال من بيته إلى المسجد ليؤذن لصلاة الفجر كما كان يؤذن كل يوم ؛

وكان من عادة بلال أن يدعو ربه قبل الأذان بدعوات يسأله فيها أن يرزقه الهدى والتقى والعفاف والغنى وأن يحشره

في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين .

وجاء وقت الأذان ، فارتفع صوت بلال نديا صداحاً ، يزيده سكون الليل روعة وجلالا ..

الله أكبر ..: الله أكبر

الله أكبر .. الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن لا إله إلا الله

أشهد أن . . . . .

واحتبست الكلمات في حلق بلال ، وعقد لسانه ، ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة ، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه فتسيل على خديه كأنها مطر غزير ...

وبعد جهد جهيد استطاع بلال أن يتملك أعصابه ويتغلب على عبراته ، وأن يحل عقدة لسانه ، فأكمل الأذان في صوت هادىء خفيض :

أشهد أن محمداً رسول الله

أشهد أن محمداً رسول الله

حي على الصلاة .. حي على الصلاة

حي على الفلاح .. حي على الفلاح

الله أكبر .. الله أكبر ، لا إله إلا الله

ورجع بلال بعد الأذان إلى بيته وهو يقول لنفسه إن في موتك يارسول الله خسارة .. ولكن هكذا قضى الله فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه وانتظر بلال حتى جاء وقت الظهر ، فخرج إلى المسجد ، ثم انتحى له ناحيةجلس فيها معتزلا الناس وحان وقت الأذان ، وأرهف الناس آذانهم ليسمعوا صوت بلال ، ولكن بلالا لم يؤذن ، فتعجب الناس ، وبحثو عن بلال فوجدوه في مكانه الذي اعتزل فيه ، فصاح به رجل :

- الأذان يابلال

- لن أؤذن بعد اليوم ، فليؤذن غيري ..

وخرج أبو بكر مناديا :

- اين بلال ؟

فتقدم بلال منه وقال :

- انا هو .

- اذن يا بلال

- لا ..

ولِمَ ؟

- ان كنت انما اعتقتني لأكون معك فسبيل ذلك . وان كنت اعتقتني لله فخلني وما اعتقتني له

ما اعتقتك إلا لله

فإني لاأؤذن لأحد بعد رسول الله أبداً

وهكذا أبى بلال ان يؤذن لأحد بعد رسول الله حاسباً ان ذلك من الوفاء للرسول الأمين الذي كان حبه يحتل من قلب بلال سويداءه وصميمه :

لقاء الأحبة

قضى الأمر . وانتخب المسلمون أبابكر الصديق خليفة لرسول الله . فكان أول عمل اهتم به الصديق بعد توليه الخلافة إنقاذ جيش أسامة بن زيد . الذي عقد رسول الله له اللواء ، الى بلاد الشام .

وجهز أبوبكر الجيش ، وحانت ساعة الرحيل : فوقف أسامة على جيشه ريثما يأتي الخليفة ليودعهم ويوصيهم :

وأقبل ابوبكر من بعيد ماشياً على قدميه فلما وصل الى أسامة هم أسامة ان ينزل من فوق فرسه، فأشار اليه الصديق ان لاينزل ، فقال أسامة .

ـ ياخليفة رسول الله ، والله لتركبن او لأنزلن .

ـ لاتنزل ، ولاأركب : وماعلى أن أغبر قدمى في سبيل الله ساعة فان للغازي في كل خطوة سبعمائة حسنة تكتب لهوسبعمائة درجة ترفع له وان ترفع عنه سبعمائة خطيئة وبينما كان الرجلان

يتحادثان، أقبل بلال بن رباح لابساً عدةالقتال فلما رآه ابوبكر سأله :

ـ الى اين يابلال ؟

ـ جئتك اطلب منك الأذن بالخروج في جيش أسامة .

ـ لا يابلال .. أبق معنا

ـ ياخليفة رسول الله ، لقد شعرت بفراغ في نفسي بعد فراق الرسول . فرأيت ان اخرج للجهاد .

أبق معنا يابلال فاني في حاجة اليك

ـ ياخليفة رسول الله .. إني ..

ـ أنشدك الله يابلال ، وحرمتي وحقي ألا بقيت هيه يابلال .

ـ سأبقى ياخليفة رسول الله .

ثم التفت ابو بكر الى أسامة وقال :

ـ يا أسامة ، أصنع ماأمر نبي الله ابدأ ببلاد قضاعة ، ثم الإبل ولاتقصرن في شيء من امر رسول الله .

ـ سمعاً وطاعة .

واذا رأيت ان تعينني بعمر بن الخطاب فافعل فاشار أسامة الى عمر ، فخرج من بين الصفوف .

وانطلق الجيش باسم الله مجراه ومرساه

* * *

ومرت الأيام بعد ذلك ، وبلال في المدينة يشاهد الجيوش والامدادات التي يبعث بها ابو بكر الى قواده الذين اطلقهم لفتح الدنيا وضمها الى الاسلام وتبليغها دعوة القرآن . وكان بلال يسمع بين الفينة والفينة بشائر الانتصارات المتتالية لجيوش المسلمين في الشام والعراق فكان كلما سمع ذلك حزن حزناً شديداً لعدم اشتراكه في فتح هذه البلاد وابلاغها رسالة الاسلام .

والحق ان بلال كان جندياً قوياً . تتدفق دماء الجهاد في عروقه قوية حارة ، ولكم قاتل ، ولكم جاهد ولكم اشترك مع رسول الله في غزوات وغزوات .

وذهب بلال الى ابي بكر الصديق ليستأذنه مرة اخرى في

الخروج للجهـاد فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة وما كان بلال ليرضى الا بالدرجة العليا .

وسمع بلال ان ابا بكر مريض . فرجع ، ثم مات ابو بكر وخلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

وذهب بلال الى عمر ليستأذنه في الخروج فقال له :

ـ ألا تبقى يابلال بجواري كما كنت بجوار النبي وابي بكر .

ـ أحن الى الجهاد ياأمير المؤمنين

ـ لك ماتريد يابلال . والى اين

ـ ألحق بأبي عبيدة في الشام

ـ على بركة الله

وخرج بلال وسار حتى لحق بجيوش ابي عبيدة ، وحاصر المسلمون بيت المقدس ، وابى حاكم المدينـــة ان يسلمها إلا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه فأرسل ابو عبيدة إلى عمر يخبره الخبر .. وارسل عمر بن الخطاب إلى قواد جيوشـــه ان يجتمعوا به في الجابية قبل ان يتوجه الى بيت المقدس . وانطلق

ابو عبيدة إلى الجابية وصحب بلالا معـــه ، وجاء بقيـــة القواد وانتظروا حتى اقبل عليهم امير المؤمنين ..

ولما جاء وقت الصلاة طلب الناس من عمر ان يأمر بلالا بالأذان فقام بلال . وارتفع صوته لأول مرة بعد موت رسول الله فأهاج الشجون . واعاد الذكريات إلى رسول الله حتى بكى كثير من الصحابة وعلى راسهم عمر .

ولما قضيت الصلاة ذهب عمر وتسلم مفاتيح بيت المقدس ومرت الأيام .. وجاءت ســـنة عشرين من هجرة رسول الله صلى الله عليه وســـلم ، فمرض بلال وثقل عليـــه المرض حتى شحب وجهه وغارت عيناه فقالت له زوجه تواسيه :

- كيف حالك يابلال ؟

- دنا الفراق ..

- واحزناه ... واحزناه ...

ففتح بلال عينيه وقال لها وهو يغالب المرض ويصارعه بل وافرحتاه .. غداً نلقى الأحبه .. محمداً وصحبـــه .. ثم اغمض عينيه . والقى براسه على صدره ولفظ النفس الاخير .